Journal Of the Iraqia University (74-5) September (2025)

ISSN(Print): 1813-4521 OnLine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at: https://www.mabdaa.edu.iq

أبو الحسن الأشعري: دراسة في حياته وأسباب تحوله عن المعتزلة

المدرس المساعد: شكار عثمان حمه‌فرج
جامعة السليمانية – كلية العلوم الإسلامية

Abu al-Hasan al-Ash'ari: A Study of His Life and Reasons for His Shift from the Mu'tazila

Assistant Teacher: Shkar Othman Hamafaraj
University of Sulaimani - College of Islamic Sciences
shkar.hamafaraj@univsul.edu.iq

الخلاصة:

يُعنى هذا البحث بدراسة حياة إحدى أبرز الشخصيات الفكرية في تاريخ الإسلام، وهو أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري البصري (المتوفى ٣٢٤هـ/٩٣٥م)، الذي يُعد المؤسس الحقيقي للمذهب الأشعري الكلامي. إذ يتناول البحث ولادته ونشأته في مدينة البصرة بالعراق، ويلقي الضوء على بيئته العائلية. كما يتتبع مساره التعليمي المبكر وتأثره في البداية بالمذهب الاعتزالي. ويستعرض البحث قائمة بأبرز أساتذته الذين صقلوا فكره ومعارفه، وكان لهم دور في تكوين شخصيته العلمية، وكذلك يبرز سمات شخصيته. ويتطرق البحث إلى مذهبه الفقهي ومؤلفاته العديدة التي أثرت المكتبة الإسلامية، والتي تجاوزت مئة كتاب ورسالة، منها ما وصل إلينا ومنها ما فُقد. ويُسلط الضوء على تلاميذه الذين حملوا راية مذهبه ونشروه من بعده وقاموا بتثبيت أصول المذهب الأشعري وتوسيعه.وكذلك يتناول البحث التحول الفكري والعقدي البارز الذي طرأ على أبي الحسن الأشعري، والذي يمثل نقطة تحول مهمة في تاريخ الفكر الإسلامي. فبعد أن كان الأشعري من أبرز رموز ومناصري مذهب المعتزلة لفترة طويلة، ومن تلامذة شيخهم أبي علي الجبائي، انتقل بشكل جذري إلى مذهب أهل السنة. ويسعى البحث إلى استجلاء الأسباب الحقيقية الكامنة وراء هذا التحول الجوهري، بعيداً عن التبسيط أو الاعتماد على جانب واحد من الروايات. مركزاً على الدوافع العقلية والعقدية العميقة التي قادته إلى مراجعة شاملة لأصول المعتزلة ومناقضتها، وإلى تبني منهجية جديدة في الدفاع عن عقيدة أهل السنة باستخدام أدوات علم الكلام التي برع فيها.

الكلمات المفتاحية: أبو الحسن الأشعري، أسباب تحول الأشعري عن المعتزلة، الأشعرية، المعتزلة.

Abstract:

This research focuses on the life of one of the most prominent intellectual figures in the history of Islam, Abu al-Hasan Ali ibn Ismail al-Ash'ari al-Basri (died 324 AH/935 AD), who is considered the true founder of the Ash'ari theological school. The study examines his birth and upbringing in the city of Basra, Iraq, and sheds light on his family environment. It also traces his early educational journey and his initial influence by the Mu'tazili school. The research presents a list of his most notable teachers who shaped his thoughts and knowledge, as well as highlighting the characteristics of his personality. The study discusses his jurisprudential school and his numerous writings that have influenced the Islamic library, amounting to over a hundred books and treatises. It also highlights his students who carried on his scholarly legacy.The research also addresses the prominent intellectual and doctrinal transformation that occurred in Abu al-Hasan al-Ash'ari, which represents a significant turning point in the history of Islamic thought. The research aims to reveal the underlying true reasons behind this essential transformation, moving away from simplification or reliance on a single aspect of the narratives. It focuses on the profound intellectual and doctrinal motivations that led him to a comprehensive review of the foundations of the Mu'tazilites and their contradiction, and to adopting a new methodology in defending the doctrine of the Ahl al-Sunnah using the tools of dialectical theology in which he excelled.Keywords: Abu al-Hasan al-Ash'ari, reasons for al-Ash'ari's departure from the Mu'tazila, Ash'aris, Mu'tazila.

المقدمة:

تمر الأديان بمرحلتين، الإيمان والتصديق، ثم مرحلة الجدل التي ينشأ عنها علم الكلام كتطور طبيعي. ورغم نهي النصوص الدينية في الإسلام عن الخوض في الغيب، اضطرت عوامل داخلية وخارجية فريقا من المسلمين –كالمعتزلة– للدفاع عن العقيدة بالعقل، مما مثل تطورا حتميا. تحملت المعتزلة تبعات هذا الخوض ولاقوا رفضا من الفقهاء وأهل الحديث، ورغم دورهم الكبير ونشاطهم الواسع، لم يعترف بعلم الكلام كعلم ديني رسمي، طوال عصرهم القرنين الثاني والثالث الهجري. لكن عدم الاعتراف لم يمنع نشأة العلم وازدهاره، بل خاض في بعض مسائله حتى منكريه كالإمام أحمد بن حنبل.انشق المذهب الاعتزالي عن حلقة الحسن البصري، مؤكدا دور العقل في مقابلة النص، ومقدما التنزيه الإلهي والوحدانية حتى على حساب صفات الكمال، ومتشبثا بحرية الإنسان واستقلاله تطبيقا لمفهومهم للعدل الإلهي. غلب عليهم الاتجاه العقلي المفرط نحو التنزيه والتجريد، فضعفت نزعتهم العملية القائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وانشغلوا بنظريات كلامية دقيقة. وكان خطؤهم القاتل استخدام السلطة العباسية في إلزام خصومهم بآرائهم عبر السياط والتعذيب.اشتد طغيان المعتزلة في عهد بعض الخلفاء العباسيين، ففرضوا المحن على كبار الفقهاء والمحدثين والأئمة، مما أدى لنسيان الناس لخيرهم. مع مجيء المتوكل، تغير الحال بإبعاده المعتزلة وتقريب خصومهم، مما أضعف شوكتهم ودفع العلماء من الفقهاء والمتكلمين لمناظرتهم بلسان قوي وبدعم من العامة والخاصة.أسرف المعتزلة في تحكيم العقل إلى حد محاولة تعليل كل فعل إلهي، متناسين قصور العقل البشري عن الإحاطة بحكمة الله الكاملة في جزئيات الكون، وكان يمكنهم الإيمان بإحكام التدبير الإلهي العام دون الخوض في تعليل تفاصيله .[1]ومن الذين كان لهم دور بارز في نصرة عقيدة الاعتزال الشيخ أبو الحسن الأشعري، الذي كان ينتمي إلى فرقة المعتزلة الكلامية، لم يكن مجرد منتسب أو متأثر، بل كان من أبرز تلاميذهم ومدافعيهم النشطين، لا سيما وأنه كان تلميذا لأبي علي الجبائي، شيخ المعتزلة في عصره وزوج أمه، وهو ما منحه إحاطة بأصول مذهبهم وفروعه. وقد ظل الأشعري يناضل عن آراء المعتزلة ومعتقداتهم بكل قوة وحماس، مستخدما الحجة والبرهان في مناظراته وكتاباته، نصيرا لقضاياهم.أمضى في هذه المرحلة قرابة أربعين عاما من عمره مدافعا عن المذهب المعتزلي. ثم بعد تلك الفترة الطويلة من الانتماء والجهاد الفكري في سبيل المعتزلة وبعد فتنة خلق القرآن بوقت قصير، حدث تحول جذري في فكر الأشعري، قاده إلى مراجعة شاملة لآراء المعتزلة وأصولهم، ومن ثم أعلن تخليه عن مذهبهم والتبرؤ منه، معلنا رجوعه إلى منهج أهل السنة والجماعة في الاعتقاد.تضمن هذا البحث في هيكله خلاصة مركزة باللغتين العربية والإنجليزية، ومقدمة وهي هذا القسم الحالي نفسه، ومبحثين رئيسيين يشكلان لب الدراسة، ثم خاتمة.أما المبحث الأول؛ فيهدف إلى دراسة حياة أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، الذي يُعد أحد أبرز المؤسسين لعلم الكلام السني. وقد اضطلع الأشعري بدور محوري في الدفاع عن أصول العقيدة الإسلامية، وترسيخها في مواجهة الشبهات والانحرافات الفكرية التي ظهرت في عصره.وأما المبحث الثاني؛ فيركز بشكل خاص على تحليل الأسباب والتحولات الفكرية العميقة التي دفعت به إلى نبذ مذهب الاعتزال الذي نشأ عليه وترعرع في كنفه، والانتقال إلى منهج أهل السنة. وسيتم تسليط الضوء على أبرز النقاط الفاصلة في مسيرته الفكرية، كالجدالات الكلامية التي خاضها، والتساؤلات الفلسفية التي أدت به إلى مراجعة أسس المذهب الاعتزالي، وكيفية إدراكه لتضارب كثير من مبادئه مع النصوص الشرعية الأصيلة والعقل السليم.ولتحقيق هذه الأهداف العلمية، سيعتمد البحث على المنهج التحليلي النقدي، مع تتبع دقيق لمسيرة الأشعري الفكرية ومراحل تطوراته العقدية، بدءاً من نشأته الاعتزالية، مروراً بلحظة تحوله، وصولاً إلى تأسيسه لمذهبه الكلامي. وسيتم الاعتماد بشكل أساسي على المصادر الموثوقة والأصيلة، كالمصادر التاريخية والتراجم المبكرة التي وثقت حياته ومواقفه.من المتوقع أن تسهم هذه الدراسة بفاعلية في فهم حياة أبي الحسن الأشعري وسياقه التاريخي بشكل أوضح، وتجلية الأسباب العميقة والدوافع الفكرية التي دعته إلى ترك مذهب المعتزلة. وأما الخاتمة؛ فتُعنى بإبراز أهم النتائج المتوصل إليها من خلال التحليل، وتقديم التوصيات التي يرى الباحث أنها تفتح آفاقاً جديدة للبحث المستقبلي في هذا المجال. ويتبع الخاتمة الهوامش التفصيلية للبحث، وتوثيق لمصادره ومراجعه المعتمدة.

المبحث الأول: حياته:

أولا: اسمه ونسبه:

هو أبو الحسن، علي بن إسماعيل بن أبي بشر (= إسحاق)، ابن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، –صاحب رسول الله –صلى الله عليه وسلم–. فأبو الحسن الأشعري ينتهي نسبه إلى هذا الصحابي الجليل، واسمه عبد الله بن قيس الأشعري اليماني.[2]تجمع غالبية المصادر التاريخية وكتب التراجم والسير التي تناولت سيرة أبي الحسن الأشعري على صحة نسبه هذا. ويُلاحظ أن هذا الاتفاق يكاد يكون إجماعاً كاملاً بين المؤلفين والمؤرخين، حيث لا تكاد توجد خلافات جوهرية أو طعون معتبرة تُلقي بظلال الشك على هذا النسب المثبت.[3]

ثانيا: ولادته ونشأته:ولد أبو الحسن الأشعري بالبصرة سنة (٢٦٠هـ)، وذكر ابن عساكر تاريخ ميلاده وصرح بأنه لا يعلم في هذا التاريخ مخالفا[4]، على الرغم من هذا التأكيد في سنة ميلاده إلا أن بعض الباحثين المعاصرين ذكروا أن تاريخ ميلاده لا يزال غير مؤكد على وجه اليقين .[5]

ثم انتقل أبو الحسن الأشعري من مدينة البصرة التي كانت آنذاك مركزا مهما للمدارس الفكرية، وخاصة المعتزلة التي كان الأشعري قد انتسب إليها في بداياته. وجاء انتقاله إلى بغداد، عاصمة الخلافة العباسية وقلب العالم الإسلامي العلمي والثقافي، على الأرجح بعد مرحلة تحوله الفكري الكبرى وتخليه عن منهج الاعتزال.ينحدر الأشعري من أسرة عربية عريقة ذات مكانة دينية واجتماعية مرموقة، حيث يعود نسبه كما تقدم إلى الصحابي أبي موسى الأشعري. التحق الأشعري مبكرا بمذهب المعتزلة ودرس على يد الجبائي، رئيس معتزلة البصرة.حكى ابن عساكر عن بعض الأشعرية أنه قال: "كان الأشعري تلميذ الجبائي يدرس عليه فيتعلم منه ويأخذ عنه لا يفارقه أربعين سنة، وكان صاحب نظر في المجالس، وذا إقدام على الخصوم، ولم يكن من أهل التصنيف، وكان إذا أخذ القلم يكتب ربما ينقطع، وربما يأتي بكلام غير مرضي، وكان أبو علي الجبائي صاحب تصنيف وقلم، إذا صنف يأتي بكل ما أراد مستقصى، وإذا حضر المجالس وناظر لم يكن بمرض، وكان إذا دهمه الحضور في المجالس يبعث الأشعري ويقول له نب عني، ولم يزل على ذلك زمانا" .[6]

ثالثا: شيوخه:لاشك أن شخصية بحجم أبي الحسن الأشعري، الذي يعد علامة فارقة في تاريخ الفكر الإسلامي ومؤسس مذهب كلامي مشهور، أثر في مسيرة العقيدة الإسلامية لقرون طويلة، لم يكن ليصل إلى هذه المرتبة الرفيعة من العلم الواسع، والبراعة في الاستدلال، والنبوغ الفكري الذي تجلى في قدرته على صياغة الأصول العقدية والرد على المخالفين بأسس منهجية قوية، دون أن يتتلمذ على أيدي كبار العلماء والشيوخ في عصره. فالمنهجية العلمية والتقليد المعرفي الأصيل في الثقافة الإسلامية، قامت على التلقي المباشر للعلم من أفواه الشيوخ والمذاكرة معهم كان لهؤلاء الأساتذة الأثر البالغ في تكوينه المعرفي، وصقل مهاراته الجدلية والنقدية، وتوجيه مساره الفكري في المراحل المبكرة من حياته العلمية. إن معرفة هؤلاء الشيوخ وتحديدهم تعد ضرورية لفهم تطور فكره، والمصادر التي استقى منها علمه، والأسس التي بنى عليها مذهبه الكلامي، وتفسير التحولات التي طرأت على منهجه العقدي.

من أبرز شيوخ أبي الحسن الأشعري:

١- أبو يحيى زكريا بن يحيى الساجي البصري (ت. ٣٠٧هـ)كان الساجي من كبار أئمة الحديث والفقه في عصره، ومن أصحاب الإمام أحمد بن حنبل، ويعد من أبرز ممثلي مذهب أهل الحديث والسنة. تلقى عنه الأشعري –بوصية من والده وبعد وفاته– العلوم الدينية. يعتقد أن تأثير الساجي كان حاسما في عودة الأشعري بعد الاعتزال إلى منهج السلف في الاعتقاد، ودفاعه عن مذهب أهل السنة والجماعة، المبني على نصوص الوحي مع الاستدلال العقلي المؤيد لها، فإن الأشعري أخذ عنه أصول أهل السنة والحديث، ومقالة السلف في الصفات .[7]قال ابن عساكر: "ذكر الإمام أبو بكر بن فورك أن أباه (أي: الأشعري) هو أبو بشر إسماعيل بن إسحاق، وأنه كان سنيا جماعيا حديثيا، أوصى عند وفاته إلى زكريا بن يحيى الساجي –رحمه الله–، وهو إمام في الفقه والحديث، وله كتب؛ منها كتاب: «اختلاف الفقهاء»، وكان يذهب مذهب الشافعي، وقد روى عنه الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتاب «التفسير» أحاديث كثيرة".[8]

2-أبو علي محمد بن عبدالوهاب الجبائي البصري (٢٣٥-٣٠٣هـ)يعتبر الجبائي من أهم شيوخ أبي الحسن الأشعري وأكثرهم تأثيرا في مرحلته الأولى. كان الجبائي من أعلام المعتزلة في عصره، وشيخ المعتزلة في البصرة، كما كان زوج أم الأشعري. تلقى الأشعري على يديه علوم الاعتزال ومنهجه في الجدل والاستدلال العقلي، وظل على مذهب الاعتزال قرابة أربعين عاما .[9]كان هذا التكوين الاعتزالي أساسا متينا لفهم الأشعري لأصول هذا المذهب ومسائله، وهو ما أهله لاحقا لمناظرته ونقده من الداخل، والخروج عليه بمذهب جديد يمثل أهل السنة والجماعة في مواجهة الاعتزال. يذكر أن النقطة الفاصلة في انفصال الأشعري عن شيخه كانت بسبب مسائل كلامية خلافية، مثل مسألة "الصلاح والأصلح" و"المنزلة بين المنزلتين" و"خلق أفعال العباد"، مما دفعه إلى مراجعة شاملة لمواقفه العقائدية .[10]

٣- أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي البصري (٢١٨-٣٠٥هـ)يعد من كبار أئمة الحديث النبوي وحفاظه وثقاته في عصره، وهو أحد أبرز شيوخ البصرة ومحدثيها. ولد بالبصرة ونشأ فيها، وتوفي بها كذلك عن عمر ناهز سبعة وثمانين عاما.كان الفضل بن الحباب من الحفاظ النقاد، اشتهر بغزارة السماع وكثرة الشيوخ، والرحلة في طلب الحديث. فقد سمع من عدد كبير من أعلام المحدثين في البصرة والشام وغيرها من الأمصار، منهم: أبو موسى محمد بن المثنى (الزمن)، ومحمد بن بشار (بندار)، وأبو كامل الجحدري، وعبد الرحمن بن واقد أبو مسلم، وخلف بن هشام البزار (أحد القراء العشرة)، وهدبة بن خالد، والعباس بن الوليد النرسي. وقد أخذ عنهم علما جما وأسانيد عالية.حظي الفضل بن الحباب بتقدير وإجلال واسع من قبل كبار العلماء وأئمة الجرح والتعديل. فقد وثقه وأثنى عليه كثيرون، منهم الذهبي الذي وصفه بأنه: "الإمام، الحافظ، الثقة،

شيخ أهل البصرة ومحدثها" .[11]ويرى بعض الباحثين والمؤرخين أن الفقيه المعروف، أبا إسحاق إبراهيم بن أحمد المروزي الشافعي (ت. ٣٤٠هـ)، كان من شيوخ أبي الحسن الأشعري،ويستندون في هذا إلى ما ذكره الخطيب البغدادي، من أن الأشعري "كان يجلس أيام الجمعات في حلقة أبي إسحاق المروزي الفقيه من جامع المنصور" .[12]لا شك أن أبا الحسن الأشعري قد تتلمذ على أيدي عدد أكبر من الأساتذة والمشايخ الذين ذكروا في بعض كتب التراجم، إلا أن هؤلاء المذكورين هم الأشهر والأبرز ممن تلقى العلم عنهم.لقد أسهمت هذه التشكيلة المتنوعة من الشيوخ في بناء شخصية أبي الحسن الأشعري العلمية، حيث اكتسب من الجبائي منهج الجدل الكلامي، ومن الساجي وغيره من أعلام السنة والحديث فهما في السنة والحديث، مما مكنه فيما بعد من صياغة مذهب عقدي جامع ومتوازن إلى حد كبير، يجمع بين النقل والعقل.رابعا: سماته الشخصية:إن المتأمل في دراسة حياة أبي الحسن الأشعري –رحمه الله–، يلحظ بجلاء سمو أخلاقه ورفعة طبعه، وحسن تعامله مع الآخرين. ذكر ابن عساكر عن أحمد بن علي الفقيه أنه قال: "سمعت أبي يقول خدمت الإمام أبا الحسن بالبصرة سنين، وعاشرته ببغداد إلى أن توفي –رحمه الله–، فلم أجد أورع منه ولا أغض طرفا، ولم أر شيخا أكثر حياء منه في أمور الدنيا، ولا أنشط منه في أمور الآخرة".[13]ومن السمات البارزة التي يلحظها بوضوح القارئ لكتبه هو اعتماده الأسلوب المؤدب والراقي في تعامله مع خصومه ومخالفيه في الرأي أو العقيدة. يتجلى هذا الأدب الجم في اختياره الدقيق والمدروس للألفاظ، حيث يتجنب تماماً استعمال أي تعابير نابية، أو ألفاظ غير لائقة، أو كلمات قد تُفهم على أنها استنقاص من قدر المخالف، أو سباب، أو تهكم، رغم أن مؤلفاته مشحونة بالردود والمناقشات الكلامية.[14] هذا المنهج الأخلاقي الذي اتبعه الأشعري يشكل نموذجاً يُحتذى به في الحوار الفكري والمناظرات العلمية، مؤكداً أن الاختلاف في الرأي لا يستوجب العداء الشخصي أو اللجوء إلى سوء الأدب أو استخدام الألفاظ الجارحة.

خامسا: بساطة عيشه:لم تذكر المصادر التاريخية تفصيلا دقيقا لمصدر رزق ونفقة أبي الحسن الأشعري بشكل مباشر كمهنة محددة أو دخل ثابت، لأن العلماء في عصره كانوا غالبا ما يتفرغون للعلم والتدريس والتأليف. لكن ذكر ابن عساكر عن بندار بن الحسين خادم الأشعري، (وهو شخصية مقربة من أبي الحسن، حيث كان في خدمته المباشرة بالبصرة) أنه قال: "كان أبو الحسن يأكل من غلة ضيعة وقفها جده بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري على عقبه، قال: وكانت نفقته في كل سنة سبعة عشر درهما" .[15]هذا المبلغ الزهيد للغاية، حتى بمعايير تلك الأزمان، يدل على أقصى درجات التقشف والقناعة والاعتماد الكلي على الله، وتجرده من أي مظاهر رفاهية أو تعلق بالمال والمتاع. إن هذه النفقة الضئيلة تبرهن بوضوح على أن الأشعري كان يعيش حياة بسيطة للغاية، لا تكاد تتجاوز الضروريات القصوى، مما يؤكد زهده وورعه، واستغراقه في الاشتغال بمتطلبات الآخرة على حساب مغريات الدنيا.[16]

سادسا: وفاته:إن تاريخ وفاة أبي الحسن الأشعري لم يحدد بدقة في أغلب المصادر التاريخية وكتب التراجم القديمة. فقد ذكر العديد من المؤرخين وأصحاب كتب الطبقات أن الأشعري توفي في فترة زمنية تقع بعد سنة عشرين وثلاثمئة للهجرة النبوية الشريفة (٣٢٠ هـ)، وقبل سنة ثلاثين وثلاثمئة (٣٣٠ هـ). وهذا يعني أن وفاته كانت في إحدى سنوات العقد الثالث من القرن الرابع الهجري، أي بين عامي ٣٢١ هـ و ٣٢٩ هـ.قال الخطيب البغدادي: "مات ببغداد بعد سنة عشرين، وقبل سنة ثلاثين وثلاثمئة، ودفن في مشرعة الروايا في تربة إلى جانبها مسجد، وبالقرب منها حمام، وهي عن يسار المار من السوق إلى دجلة" .[17]لكن ذكرالحافظ والمؤرخ ابن عساكر الدمشقي (ت. ٥٧١ هـ) كلام الخطيب المار وأورد عن جماعة أن الأشعري مات سنة أربع وعشرين وثلاثمئة للهجرة (٣٢٤ هـ)، ثم قال: "وكذا ذكر الأستاذ أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني، تلميذ تلميذه أبي الحسن الباهلي، وهو أعلم بأمره .[18]"فالذي يبدو راجحا أنه توفي سنة أربع وعشرين وثلاثمئة للهجرة (٣٢٤ هـ).

سابعا: مذهبه الفقهي فيما يتعلق بمذهب أبي الحسن الأشعري الفقهي فقد تنازعته كتب الطبقات الفقهية. فبعض هذه الكتب تصنفه ضمن فقهاء المذهب الشافعي[19]، وهو الرأي الأكثر شيوعا وانتشارا، خاصة أنه قضى فترة كبيرة من حياته بعد رجوعه عن الاعتزال في بغداد حيث غلبت المدرسة الشافعية، وكان يداوم على حضور مجالس بعض فقهائها مثل أبي إسحاق المروزي كما تقدم ذكره. بينما تشير مصادر أخرى إلى جوانب من نشأته العلمية أو تحولاته الفكرية، التي قد تلمح إلى تأثره بمذاهب فقهية أخرى في بداياته، مثل المذهب المالكي الذي قيل إنه تأثر به في نشأته الأولى في البصرة[20]، أو المذهب الحنفي[21]. وتعكس هذه الكتب تباينا في الروايات المنقولة عن تحديد مذهبه الفقهي الدقيق. لكن الغالب في تصنيف كتب الطبقات له هو إلحاقه بالمذهب الشافعي.وأورد ابن عساكر من كلام أبي محمد الجويني والد أبي المعالي الجويني ما يدل على كونه شافعي المذهب فقال: "ذكر الشيخ الإمام ركن الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف الجويني –رحمه الله– في آخر كتاب صنفه وسماه «عقيدة أصحاب الإمام المطلبي الشافعي –رحمه الله– وكافة أهل السنة والجماعة» وقال ... وأبو الحسن أحد أصحاب الشافعي –رضي الله عنهم–، فإذا خالفه في شيء أعرضنا عنه فيه، ومن هذا القبيل قوله: أن لا صيغة للأمر. وتقل وتعز مخالفته أصول الشافعي –رضي الله عنه– ونصوصه" .[22]

وقال ابن عساكر أيضا في مذهبه الفقهي : "... كان (أي: الأشعري) يذهب فيه مذهب الشافعي، أو مذهب مالك وأهل المدينة" .[23]

هذا التنازع أو الاختلاف في تحديد المذهب الفقهي عند الأشعري يعود لعدة أسباب:

١. التركيز الأساسي على علم الكلام: بما أن الأشعري كان قمة في علم الكلام وأكثر ما عرف به هو تأسيس مذهبه العقدي، فقد طغى هذا الجانب على تصنيفه الفقهي، مما قد جعل بعض كتب الطبقات الفقهية التي تركز على الفقهاء البارزين في كل مذهب، لا تبرز انتسابه الفقهي بنفس درجة إبرازها لعلماء الفقه المشهورين.

٢. تغيراته الفكرية العميقة: بدأ الأشعري حياته الفكرية على مذهب المعتزلة في الأصول، ثم انتقل إلى مذهب أهل السنة والجماعة، وأصبح من أبرز المدافعين عنه. لكن مساره الفكري مر بمراحل رئيسية أثرت على كامل بنائه المعرفي، بما في ذلك مقارباته للمسائل الفقهية.

هذا التحول الفكري العميق لم يكن مجرد تغيير في قناعاته الكلامية، بل أثر بالضرورة على منهجه العام في فهم الشريعة واستنباط الأحكام.

٣. وجود اجتهادات خاصة به: على الرغم من انتسابه للشافعية، فإن كبار العلماء غالبا ما يكون لهم اجتهاد خاص بهم في بعض المسائل، أو يختارون أقوالا مرجوحة داخل المذهب، مما قد يجعل تصنيفهم الدقيق في قالب مذهبي صارم أمرا يتطلب تدقيقا.

ومع تلك الاختلافات، فإن الرأي الغالب والمشهور بين المحققين والباحثين هو أنه كان شافعي المذهب في الفروع الفقهية، وإن كان له تميزه واجتهاده الذي لا يخرج عن أصول المذهب .[24]

ثامنا: مؤلفاته:يعرف الأشعري بأنه كان غزير التأليف بشكل استثنائي. تشير العديد من المصادر التاريخية وتراجم الأعلام إلى أن مؤلفاته تجاوزت المئة، من بين كتاب ورسالة، شملت فروعا متنوعة من العلوم الإسلامية، لا سيما في علم الكلام، والرد على المخالفين من الفرق الأخرى، وتأسيس أصول المذهب العقدي. هذا العدد الهائل يعكس مدى عمق علمه، وسعة معارفه، وجهوده الكبيرة في تدوين الأصول العقدية والدفاع عنها.[25]

ولكن المفارقة تكمن في أن هذا التراث الفكري الضخم للأشعري، لم يصل إلينا منه إلا عدد قليل جدا. يعزى هذا النقص الشديد في توافر مؤلفاته إلى عدة عوامل تاريخية، منها ضياع العديد من المخطوطات عبر القرون بسبب الحروب، والفتن، والكوارث الطبيعية، بالإضافة إلى إهمال النسخ من قبل المسلمين.وبالتحديد، لا يتوفر من مؤلفاته الكثيرة في الوقت الراهن بشكل مطبوع إلا خمسة أعمال رئيسية، تعد مصادر أساسية لفهم فكره ومنهجه. هذه الأعمال هي:

١. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: يعد هذا الكتاب مرجعا فريدا وموسوعة قيمة في علم الفرق، حيث استعرض فيه الأشعري آراء الفرق الإسلامية المختلفة وعقائدها بدقة وموضوعية، مع بيان مواطن الاختلاف والاتفاق، مما يجعله مصدرا لا غنى عنه لدراسة تاريخ الفرق والمذاهب الإسلامية.

٢. كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع: وهو من أهم مؤلفاته في علم الكلام، بسط فيه الأشعري أصول العقيدة التي رآها راجحة، وقدم ردودا قوية ومفصلة على شبهات المعتزلة وغيرهم من المخالفين. يعتبر هذا الكتاب من أوضح مؤلفاته في بيان منهجه الكلامي وأسلوبه في إثبات الحقائق العقدية.

٣. استحسان الخوض في علم الكلام: رسالة تنسب للأشعري على أنها من أعماله، وهي على الرغم من صغر حجمها، إلا أنها رسالة بينة الأثر في الدفاع عن علم الكلام. ألفت للدفاع عن مشروعية استخدام العقل والمنطق في بحث مسائل العقيدة، ردا على من حرم ذلك من بعض العلماء، بينت فيها ضرورة هذا العلم في دحض الشبهات التي يثيرها المخالفون.

٤. الإبانة عن أصول الديانة: يعتبر هذا الكتاب أبرز مؤلفاته التي اختلف الباحثون في نسبته إلى الأشعري، فإن صح النسبة؛ فهو تبين منهجه العقدي وتؤكد توافقه مع عقيدة السلف وتحديدا منهج أهل الحديث. وقد وصف هذا العمل بأنه يمثل عودة الأشعري إلى منهج السلف في فهم العقيدة وبيانها.

.5رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب: ينسب هذه الرسالة للأشعري، وتُعتبر من النصوص التي توضح المعتقدات في مسائل الصفات الإلهية، والرؤية، والقدر، والإيمان، وغيرها من قضايا الاعتقاد الأساسية، وتُظهر دفاعه عن منهج السلف الصالح.

إن هذا العدد المحدود من الأعمال المطبوعة والمتوفرة، يجبر الباحثين والدارسين على الاعتماد بشكل كبير على هذه المصنفات لفهم فكر أبي الحسن الأشعري ومنهجه العقدي بشكل مباشر .[26]كما يستعين الباحثون بالاقتباسات والنقول التي وردت عنه في كتب تلاميذه ومن جاء بعده من كبار علماء الأشعرية كالباقلاني والجويني؛ لاستكمال الصورة الشاملة لفكره. وهناك كتاب لابن فورك يعد مرجعا مهما لجمع مقالات الأشعري بالاعتماد على عدد كبير من كتبه التي فقدت .[27]

تاسعا: تلاميذه:إن الرقي في ميادين العلم والاجتهاد ليس مجرد تحصيل للمعرفة فحسب، بل يعد نقل تلك المعرفة وتبليغها ونشرها مسؤولية أيضا. فالعالم الذي يتبوأ مكانة مرموقة ويبلغ شأنا عظيما في تخصصه، سواء كان ذلك في العلوم الشرعية أو في غيرها من العلوم، يعد بالضرورة منارة تضيء طريق السالكين، ويستقطب حوله طلاب العلم ومريديه والباحثين عن الحقيقة. إن وجود التلاميذ والطلاب الذين يلتفون حول الأستاذ ليأخذوا عنه، لا يعد أمرا عارضا، بل هو علامة فارقة ودليل قاطع على نضج المنهج، وقوة التأثير، وعمق الأثر العلمي الذي يتركه العالم. هؤلاء الطلاب ينهلون من معين علمه الغزير الذي لا ينضب من المعارف والحكم والأصول، ويقتدون بأثره في العلم، ويتبعون منهجه وطريقته في البحث والاستدلال، ويحذون حذوه في التحقيق والتدقيق.وفي هذا السياق، كان أبو الحسن الأشعري –رحمه الله– كغيره من الأئمة والعلماء الذين تركوا بصمة في مسار الفكر الإسلامي، قد حظي بطلاب وأصحاب وأتباع.وقد ذكرت المصادر التاريخية والتراجم والكتب المتخصصة في الطبقات والرجال، بعضا من هؤلاء الأصحاب والتلاميذ، الذين حملوا لواء علمه ونشروا منهجه واعتقاده في الآفاق، فخلدوا بذلك إرثه العلمي والفكري، وقد قسمهم ابن عساكر خمس طبقات فقال: " فالطبقة الأولى هم أصحابه الذين أخذوا عنه ومن أدركه ممن قال بقوله أو تعلم منه ... الطبقة الثانية وهم أصحاب أصحابه ممن سلك مسلكه في الأصول وتأدب بآدابه ... الطبقة الثالثة منهم من لقي أصحاب أصحابه وأخذ العلم عنهم ... الطبقة الرابعة المستبصرين بتبصيره وإيضاحه في الاقتداء والمتابعة ... الطبقة الخامسة التي أدركت بعضها بالمعاصرة وبعضها بالرؤية والمجالسة" .[28]

وقد أورد من أصحاب الطبقة الأولى هذه الأسماء:

1–أبو عبد الله بن مجاهد البصري، (ت. ٣٧٠هـ) درس عليه الكلام أبو بكر الباقلاني.

٢– أبو الحسن الباهلي البصري، (ت. ٣٦٩هـ) درس عليه الباقلاني وأبو إسحاق الأسفراييني وابن فورك.

3–أبو الحسين بندار بن الحسين الشيرازي الصوفي، (ت. ٣٥٣هـ) خادم أبي الحسن.

٤– أبو محمد الطبري، الفقيه الشافعي، المعروف بالعراقي، (ت. ٣٥٩هـ).

٥– أبو بكر محمد بن علي، القفال الشاشي الكبير، الفقيه، إمام الشافعية بما وراء النهر في عصره، (ت. ٣٦٥هـ).

٦– أبو سهل محمد بن سليمان، الصعلوكي النيسابوري الشافعي، (ت. ٣٦٩هـ).

٧– أبو زيد محمد بن أحمد بن عبد الله المروزي، الفقيه الزاهد، (ت.٣٧١هـ)، راوي «الجامع الصحيح» للبخاري عن الفربري.

٨– أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي الصوفي، (ت. ٣٧١هـ)، فقيه شافعي.

٩– الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي الجرجاني، (ت. ٣٧١هـ)، كبير الشافعية بجرجان في عصره.

١٠– أبو الحسن عبد العزيز بن محمد بن إسحاق الطبري.

١١– أبو الحسن علي بن محمد بن مهدي الطبري.

١٢– أبو جعفر السلمي البغدادي النقاش، (ت. ٣٧٩هـ).

١٣– أبو عبد الله الأصبهاني، المعروف بالشافعي، (ت. ٣٨١هـ).

١٤– أبو محمد عبد الواحد بن أحمد القرشي الزهري، (ت. ٣٨٢هـ).

١٥– أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد البخاري، المعروف بالأودني، الفقيه الشافعي، (ت. ٣٨٥هـ).

١٦– أبو منصور محمد بن عبد الله بن حمشاد النيسابوري الشافعي، (ت. ٣٨٨هـ).

١٧– أبو الحسين محمد بن أحمد بن سمعون البغدادي المذكر، (ت. ٣٨٧هـ).

١٨– أبو عبد الرحمن الشروطي الجرجاني، (ت. ٣٨٩هـ).

١٩– أبو علي زاهر بن أحمد بن محمد الفقيه السرخسي، (ت. ٣٨٩هـ).

وقد تولى هؤلاء الطلاب مهمة نشر فكر الأشعري بعد وفاته، فكانوا الركيزة الأساسية في انتشار المذهب الأشعري وتأصيله في الأمة الإسلامية.

عاشرا: ثناء العلماء عليه:

نال الأشعري ثناء وتقديرا بالغا من طائفة من كبار العلماء في مختلف العصور، وهذا الثناء لم يكن مجرد إطراء، بل اعترافا بدوره المحوري في نصرة عقيدة أهل السنة والجماعة، والدفاع عنها في وجه الفرق الكلامية المخالفة.

وقد أثنى عليه جماعة من أهل الحديث والفقه والكلام، قال الخطيب البغدادي: "صاحب الكتب والتصانيف في الرد على الملحدة، وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج، وسائر أصناف المبتدعة...وقال أبو بكر ابن الصيرفي: كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم، حتى أظهر الله –

تعالى– الأشعري فجحرهم في أقماع السمسم".[29]وقال ابن عساكر في سياق كلامه عن علوم الأشعري: "أما علم القرآن فقد صنف فيه التفسير الذي لا يختلف في جلالة قدره، وأما العلم بالأصول، فكان فيه بإجماع العلماء أوحد عصره، وأما علم الفقه فقد كان يذهب فيه مذهب الشافعي أو مذهب مالك وأهل المدينة، وصنف في أصوله كتبا شحنها بالأدلة المبينة، وأما علم الحديث فقد سمع منه قدر ما تدعوه الحاجة إليه، وحصل منه ما يسع الاعتماد في الاستدلال عليه، وقد روى في تفسيره حديثا كثيرا ... وإنما لم ينشر عنه الحديث بالرواية؛ لأنه كان قد قصر همته على الدراية، وصرفها إلى ما تقوى به الأصول، فلهذا عز إلى حديثه الوصول" .[30]وقال ابن تيمية عن جهود أبي الحسن في الرد على أهل الاعتزال: "بين من فضائح المعتزلة وتناقض أقوالهم وفسادها ما لم يبينه غيره؛ لأنه كان منهم، وكان قد درس الكلام على أبي علي الجبائي أربعين سنة، وكان ذكيا، ثم إنه رجع عنهم، وصنف في الرد عليهم، ونصر في الصفات طريقة ابن كلاب؛ لأنها أقرب إلى الحق والسنة من قولهم، ولم يعرف غيرها؛ فإنه لم يكن خبيرا بالسنة، والحديث، وأقوال الصحابة، والتابعين، وغيرهم، وتفسير السلف للقرآن، والعلم بالسنة المحضة إنما يستفاد من هذا" .[31]

المبحث الثاني: أسباب تحول أبي الحسن الأشعري عن المعتزلة:

استمر الأشعري على عقيدة المعتزلة سنوات عديدة مدافعا عنها، إلا أن هذا الاستمرار لم يكن مطلقا أو نهائيا، بل كان فترة من البحث والتمحيص العميق. فمع مرور الوقت، ونتيجة لإمعان النظر في أصول المذهب وفروعه، ودراسة النصوص الشرعية بمزيد من التأمل، وكذلك نتيجة لاطلاعه على اعتراضات أهل السنة والجماعة على المعتزلة، ظهرت له إشكالات عديدة، هذه الإشكالات لم تكن مجرد مسائل خلافية بسيطة، بل كانت تناقضات جوهرية وتحديات فكرية ومنطقية، شعر بها الأشعري داخل بنيان المذهب المعتزلي نفسه، وجدها لا تتوافق مع ظاهر الشريعة أو مع مقتضيات العقل السليم في بعض جوانبها.وبناء على هذه الإشكالات العديدة التي استقرت في نفسه وعقله، والتي لم يجد لها جوابا مقنعا ضمن إطار المذهب المعتزلي، ترك مذهبهم.قال ابن النديم: "كان أولا معتزليا، ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن في المسجد الجامع بالبصرة في يوم الجمعة، رقي كرسيا ونادى بأعلى صوته: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه نفسي: أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا يرى بالأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة، مخرج لفضائحهم ومعايبهم".[32]اختلف الباحثون والمؤلفون وتباينت تحليلاتهم والروايات التي ذكروها؛ حول الأسباب الحقيقية التي دفعت أبا الحسن الأشعري إلى التحول الجذري عن مذهب المعتزلة؛ الذي نشأ فيه وتلقى منهجه على أيدي شيوخه، ليخرج بمذهب كلامي جديد أصبح لاحقا المذهب الأشعري.وذلك الاختلاف يعود إلى تباين الروايات المتوفرة، وتحليلهم للظروف الفكرية والاجتماعية التي أحاطت بتلك الحقبة، فمنهم من يركز على الجانب العقلي المحض في التحول، وآخرون يضيفون الأبعاد العاطفية أو الظروف العامة، ولكن المحور الأساسي المتفق عليه هو أن التحول كان نتيجة لاقتناع فكري عميق، واجتهاد عقلي جاد، في مسعى للجمع بين العقل والنقل على أسس جديدة.أبعاد عاطفية:فمما يتعلق بالروايات والأبعاد العاطفية لتحول الأشعري ذكر ابن عساكر سلسلة من الرؤى المنامية، التي أمر فيها بترك الاعتزال والعودة إلى ما كان عليه السلف الصالح. تعتبر هذه المنامات في بعض الروايات بمنزلة إشارة إلهية أو توجيه روحي قاده لتغيير مساره العقدي جذريا.يروي ابن عساكر، نقلا عن أبي الحسن الأشعري، أنه رأى النبي –صلى الله عليه وسلم– في المنام خلال شهر رمضان (لم تحدد السنة). في الحلم الأول، سأله النبي عن حديث رؤية الله في الآخرة، وحثه على تأمل الأدلة، مؤكدا أنها براهين لا شبهات. أيقظه ذلك للتأمل في أدلة إثبات الرؤية، فوجدها قوية.في حلم لاحق، أمره النبي بمواصلة النظر في سائر المسائل، ورفض كتب الكلام والاشتغال بكتب الحديث وتفسير القرآن والعلوم الشرعية. وعندما رفض الأشعري التصنيف في الكلام ظنا منه أن هذا هو المقصود، غضب النبي وأمره بأن يصنف وينصر هذه الطريقة، مؤكدا أنها دينه الحق الذي جاء به. وعلى إثر ذلك، بدأ الأشعري في التصانيف والنصرة لمذهبه .[33]هذه الروايات المنامية يراها بعض الباحثين "قصصا موضوعة، الغرض منها إضافة نوع من القداسة على ذلك التحول، وكأنه جاء بأمر إلهي، وأنه موافق لما جاء به الدين، وتم بأمر النبي عليه الصلاة والسلام له، وإن كنا لا نخوض في تفصيلات تلك الأسباب التي لم تخل من نسج الأساطير حولها" .[34]الأسباب الحقيقية:والذي يهمنا بشكل أعمق وأكثر موضوعية هو البحث في الأسباب الحقيقية والفكرية التي دفعت الأشعري إلى ترك المذهب الاعتزالي الذي قضى فيه زهرة شبابه وتلقى علومه على يد كبار أئمته. ويمكن إجمال هذه الأسباب فيما يلي:

١– السابقة الفكرية للأشعري عند أهل السنة وأصحاب الحديث:ونقصد هنا بالسابقة الفكرية؛ المعرفة المسبقة التي اكتسبها الأشعري في مراحل مبكرة من طلبه للعلم. فقبل أن يغوص في أعماق الفكر الاعتزالي ويصبح أحد أبرز رموزه وتلامذة شيخه أبي علي الجبائي، كان قد درس بعد وفاة والده عند علماء ومشايخ أهل السنة والحديث .وبالتالي، فإن هذه السابقة لم تكن مجرد مرحلة عابرة، بل كانت تمثل أرضية معرفية كامنة. فعلى

الرغم من براعته الفائقة في الجدل والكلام الاعتزالي الذي كان من أشهر المتكلمين فيه لسنوات طويلة، إلا أن هذه المعرفة الأولية بمنهج أهل السنة قد ظلت حاضرة في وعيه أو لاوعيه، وربما كانت الشرارة الأولى لتساؤلاته وشكوكه حول بعض أصول الاعتزال، التي رأى فيها مخالفة لما تلقاه من نصوص الشرع، أو ما هو مقرر عند السلف.وهذا السبب وإن لم نره مصرحا به عند الباحثين إلا أنه يستنبط من كلامهم، قال بعضهم: " التحول الديني أو المذهبي إنما يرجع إلى عاملين متناقضين يتصارعان في النفس، ولا يمكن لهما أن يتعايشا معا، لقد ظل على مذهب الاعتزال أربعين سنة ... ولكنه كان يتعبد في الفقه على مذهب الشافعي، فضلا عن أن أباه كان من رجال الحديث... ولقد كان الاتجاهان متنافرين ... ومن ثم فقد كان من المتعذر أن يظل معتزليا ويتعبد في الفقه على مذهب الشافعي ...لقد ترجحت لديه آراء الشافعي الكلامية على تعاليم الاعتزال، ولا شك أن مكانة الشافعي الدينية تفوق مكانة أي شيخ من شيوخ المعتزلة" .[35]

٢- المناظرات العلمية:كانت المناظرات العلمية، التي ازدهرت بشكل لافت في العصور الإسلامية الأولى؛ وكانت سمة بارزة للنشاط الفكري والثقافي، عاملا حاسما في التحول العقائدي لأبي الحسن الأشعري، شارك الأشعري نفسه في العديد من هذه المناظرات في بداياته، يخوضها داخليا مع زملائه وبعض أساتذته، وخارجيا مع خصوم المعتزلة . لم تكن هذه المناظرات مجرد سجالات لفظية، بل كانت تدفع المتناظرين إلى التعمق في الأدلة، واستكشاف نقاط القوة والضعف في الحجج المقدمة. أسهمت هذه المناظرات بشكل فعال في تحول الأشعري.فمما وردت من تلك المناظرات التي خاضها مع خصوم المعتزلة ما ذكره ابن عساكر عن بعض الأشعرية أنه قال: " كان الأشعري تلميذ الجبائي يدرس عليه فيتعلم منه ويأخذ عنه لا يفارقه أربعين سنة ... وكان إذا دهمه (أي: الجبائي) الحضور في المجالس يبعث الأشعري ويقول له نب عني، ولم يزل على ذلك زمانا، فلما كان يوما حضر الأشعري نائبا عن الجبائي في بعض المجالس، وناظره إنسان فانقطع في يده، وكان معه رجل من العامة فنثر عليه لوزا وسكرا، فقال له الأشعري: ما صنعت شيئا؛ خصمي استظهر علي وأوضح الحجة وانقطعت في يده، كان هو أحق بالنثار مني. ثم إنه بعد ذلك أظهر التوبة والانتقال عن مذهبه" .[36]وهناك مناظرة أخرى داخل المذهب الاعتزالي مع شيخه الجبائي، تروى وتبرز التحول الفكري للأشعري، وهي "مسألة الإخوة الثلاثة":سأل الأشعري الجبائي عن مصير ثلاثة إخوة: أحدهم مات مؤمنا تقيا، والثاني مات كافرا عاصيا، والثالث مات طفلا صغيرا.أجاب الجبائي وفقا لأصول الاعتزال: المؤمن في الجنة، والكافر في النار. أما الطفل، فلأنه لم يكلف ولم يذنب، فهو في الجنة. فرد الأشعري: لو أن الطفل سأل ربه يوم القيامة: لماذا لم تطل عمري حتى أبلغ وأعمل صالحا كأخي المؤمن فأزداد ثوابا ودرجة؟أجاب الجبائي: سيقول الله له: إني علمت أنك لو بلغت لكفرت وعصيت، فكانت وفاتك طفلا خيرا لك لتدخل الجنة.فعقب الأشعري: إذا يسأل الأخ الكافر: لماذا لم تمتني طفلا أيضا، كي تنجيني من الكفر والنار كما أنجيت أخي؟يقال إن الجبائي لم يجد جوابا مقنعا، فقد كشفت هذه المسألة عن تناقض في مبدأ "فعل الأصلح" الاعتزالي، الذي يرى أن الله ملزم بفعل ما هو أصلح للعباد، بينما هنا يظهر أن الله قد يحجب "الأصلح" عن البعض .[37] هذه المناظرات وغيرها كشفت له عن جوانب ضعف وتناقضات منطقية في بعض الأصول الاعتزالية.

٣- التناقضات والقصور في المنهج الاعتزالي:بالغ المعتزلة في تقديم العقل وجعله المرجع الأساسي في فهم العقائد، حتى ولو بدت النصوص الشرعية معارضة لنتائج عقولهم. فقد كانوا يرون أن ما لا يقبله العقل الصريح لا يمكن أن يكون صحيحا دينيا، مما دفعهم إلى تأويل النصوص الدينية تأويلا بعيدا عن ظاهرها، أو حتى ردها أحيانا، لكي تتوافق مع قناعاتهم العقلية المسبقة.أدرك الأشعري أن هذا الإفراط يؤدي إلى تعطيل النصوص الشرعية وتفريغها من معناها، وإلى الوقوع في التأويلات المتعسفة. رأى أن العقل أداة للفهم والاستنباط وليس مصدرا مستقلا يمكنه نقض الوحي. وبدأ في منهجه الجديد السعي لتحقيق التوازن بين العقل والنقل، بحيث يقدم النقل كأصل، ويستخدم العقل لفهمه وتوضيحه والدفاع عنه، وليس لتحريف دلالاته الواضحة .[38]

٤- غلو المعتزلة تجاه خصومهم:اعتقد المعتزلة انطلاقا من منهجهم العقلاني الصارم والشديد أن استنتاجاتهم العقدية التي بنوها على تقديم العقل على النقل في كثير من الأحيان؛ هي عين الحق المطلق الذي لا يقبل الجدل، والمتوافق مع العقل والنقل على حد زعمهم. ورأوا أن كل ما خالفها هو ضلال أو بدعة تستوجب الإنكار الشديد، وأحيانا التجريم والتكفير. فقد كانوا يرون أن من يخالفهم في قضايا كلامية لا يستحق أن يوصف بالإيمان. وكان الخطأ القاتل لهم أنهم استعانوا بالسلطة السياسية لفرض المذهب بالقوة، وهذا هو المظهر الأبرز والأكثر للغلو والتطرف، ويتمثل في "محنة خلق القرآن" التي بدأت في عهد الخليفة العباسي المأمون سنة (٢١٨هـ)، واستمرت في عهد المعتصم والواثق. حيث قام قادة المعتزلة، وعلى رأسهم القاضي أحمد بن أبي دؤاد، بإقناع الخلفاء بضرورة اختبار العلماء وعامة الناس بشأن عقيدة خلق القرآن. ومن رفض الإقرار بذلك، أو أصر على القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، تعرض للسجن والتعذيب والتهديد بالقتل، كما حدث مع الإمام أحمد بن حنبل، الذي صمد

أمام هذه المحنة العنيفة ورفض الإقرار بعقيدة المعتزلة.وهكذا، كان غلو المعتزلة في تعاملهم مع المخالفين وفي محاولتهم فرض آرائهم، عاملا آخر في إقناع الأشعري بضرورة التخلي عن هذا المنهج .[39]

٥- الشك الفكري:كان من أسباب تحول أبي الحسن الأشعري عن الاعتزال الشك الفكري، الذي نعني به حالة من التساؤل العميق والمنهجي والنقد الذاتي لمسلمات وأسس المذهب الاعتزالي، الذي كان ينتمي إليه ويتبحر فيه لأكثر من أربعين عاما. كان هذا الشك شكا معرفيا في مدى قدرة المنهج العقلي الاعتزالي على استيعاب الحقائق الإلهية والشرعية، وإشكالية تقديمه للعقل على النقل في كثير من المسائل الاعتقادية.وقد أشار ابن عساكر إلى الشك الفكري كسبب من أسباب تحول الأشعري عن الاعتزال فقال:"قام (أي: الأشعري) على مذاهب المعتزلة أربعين سنة، وكان لهم إماما، ثم غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوما، فبعد ذلك خرج إلى الجامع فصعد المنبر وقال: معاشر الناس؛ إني إنما تغيبت عنكم في هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة، ولم يترجح عندي حق على باطل ولا باطل على حق، فاستهديت الله -تبارك وتعالى- فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا، وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به، ودفع الكتب إلى الناس" .[40]هذه الشكوك لم تكن مجرد اعتراضات فرعية، بل كانت تمس المنهج الاعتزالي في صميمه، وهو المنهج الذي يجعل العقل حكما مطلقا على النصوص الشرعية، ويؤولها بما يتوافق مع استدلالاته العقلية، حتى لو أدى ذلك إلى الابتعاد عن ظاهر النصوص.[41]أدرك الأشعري أن المبالغة في الاعتماد على العقل قد تؤدي إلى تأويلات بعيدة عن ظاهر النصوص الشرعية، أو إلى تعطيل بعض الحقائق الإيمانية التي لا يمكن إدراكها بالعقل المجرد وحده، وأن الوحي يجب أن يكون المرجع الأصيل. دفعه هذا الشك المنهجي إلى البحث عن منهج جديد يوفق بين العقل والنقل، ويحترم النصوص الشرعية ويقدمها، مع استخدام العقل في فهمها وتجلية معانيها دون تحريف أو تعطيل، وهو ما قاده إلى منهجه الكلامي الجديد الذي أسس للمذهب الأشعري .[42]

٦- النضج الفكري:المقصود بالنضج الفكري الذي كان من أسباب تحول أبي الحسن الأشعري من الاعتزال؛ هو العملية العميقة والشاملة من المراجعة والتدبر والتأمل النقدي، للمعتقدات والمناهج الفكرية التي كان يعتنقها ويدافع عنها سابقا. لم يكن هذا التحول مجرد تغيير رأي عابر، بل كان نتاج مرحلة من التطور الفكري والنضج المعرفي قادته إلى إعادة تقييم شاملة للأسس التي بني عليها مذهب الاعتزال، وإدراك قصورها في ضوء النصوص الشرعية ومقتضيات العقل السليم .[43]لم يعد الأشعري يقبل المعتقدات الموروثة أو المذاهب السائدة على علاتها، بل أخضعها للتدقيق والفحص النقدي العميق. وهذا شمل المبادئ الأساسية للاعتزال التي تلقاها عن شيوخه. قادته هذه المرحلة إلى التساؤل عن مدى اتساق هذه المبادئ مع نصوص القرآن والسنة الصحيحة، ومدى قدرتها على تفسير الحقائق الإلهية والكونية بشكل متكامل ومنطقي، لا يؤدي إلى التناقض أو الإلزام بما لا يليق بجلال الله تعالى.ومع نضجه الفكري، زاد إدراك الأشعري لأهمية النصوص الشرعية كمصدر أساسي للمعرفة العقدية وحقائق الإيمان. فقد وجد أن المنهج الاعتزالي غالبا ما يقدم العقل على النقل، ويؤول النصوص بما يتوافق مع قناعاته العقلية المسبقة، النضج هنا تمثل في إعطاء الأولوية للوحي الإلهي باعتباره المصدر الأصدق والأكمل، وجعل العقل أداة للفهم والاستنباط والدفاع عن حقائق الوحي، وليس حاكما عليه أو مصدرا مستقلا يمكن أن يعارضه.وبذلك وصل الأشعري إلى مرحلة من التأمل العميق والتحقيق العلمي، مكنته من رؤية الشمول والاتساق في المنهج السني القائم على الوحي والعقل معا، وإدراك القصور في المنهج الاعتزالي الذي بالغ في تقديم العقل على النقل في كثيرمن المسائل الكلامية، أو أفرط في تأويل النصوص الشرعية لإخضاعها لمنطق فلسفي معين. بناء على هذه الأسباب والتحليلات المتعددة، يتضح أن تحول أبي الحسن الأشعري كان نتيجة لعوامل فكرية وعقدية متداخلة، أدت به إلى الخروج بمذهب كلامي يهدف إلى الدفاع عن عقائد أهل السنة والجماعة بالاعتماد على المنهج العقلي، ممثلا بذلك تيارا وسطيا بين غلاة العقلانية من المعتزلة، وبين من اعتمدوا على النقل وحده من أهل الحديث .[44]

الخاتمة:

نستنتج مما تقدم في بحثنا هذا، أن أبا الحسن الأشعري -رحمه الله-، يمثل شخصية محورية ونقطة تحول فارقة في مسار الفكر الكلامي السني. وهناك توافق واسع النطاق بين الباحثين حول انتسابه الفقهي إلى المدرسة الشافعية. كما أنَّ تحوله عن المذهب الاعتزالي لم يكن مجرد رد فعل عاطفي كما قد يتوهم، بل جاء نتيجةً لعوامل متعددة ومحددة، من أبرزها:

١. تأثر الأشعري بالخلفية الفكرية السنية السابقة، التي أخذها عن أساتذته من أهل السنة والحديث في بدايات طلبه للعلم.
٢. تأثير المناظرات الكلامية على الأشعري، التي خاضها داخل المذهب الاعتزالي وخارجه.
٣. إدراك الأشعري للتناقضات والقصور المنهجي الكامن في الفكر الاعتزالي.

٤. غلو وتطرف المعتزلة في التعامل مع الخصوم، واستعمال السلطة والنفوذ السياسي ضدهم.

٥. تطور الشكوك الفكرية لدى الأشعري تجاه مرتكزات المذهب الاعتزالي.

٦. بلوغ الأشعري مرحلة النضج الفكري والمنهجي.

ونوصي بضرورة أن يولي الباحثون المتخصصون في الفكر الإسلامي، لا سيما في مجال علم الكلام والعقيدة الإسلامية، اهتمامًا مضاعفًا باستكشاف وتوضيح المنهج الكلامي الذي اعتمده أبو الحسن الأشعري. إن استخراج هذا المنهج لا يعني مجرد سرد آرائه أو عرض مختارات من نصوصه، بل يتطلب تحليلًا عميقًا لأسسه المنطقية والفلسفية التي بنى عليها حججه، وأساليبه في الاستدلال العقلي والنقلي. هذا العمل ضروري لفهم الجذور الحقيقية للمدرسة الأشعرية وتطورها.

ولا تقل أهمية عن ذلك الدعوة الملحة إلى نشر وتحقيق ما تبقى من كتبه ومؤلفاته، التي ربما لا تزال مخطوطة ولم ترَ النور بعد، في طبعات محققة علميًا. إن إخراج هذه المخطوطات إلى العالم الأكاديمي من شأنه أن يكشف جوانب جديدة من فكره لم تُدرس أو تُفهم بعد، ويُصحح فهمنا لكثير من أطروحاته التي قد تكون نُقلت عنه بشكل غير دقيق، ويُسهم في إثراء المكتبة الإسلامية بكنوز معرفية أصيلة، مما يُتيح للباحثين فرصة للاطلاع على نصوصه بشكل كامل ومباشر، بعيدًا عن الاعتماد على المصادر الثانوية التي قد لا تكون شاملة أو موثوقة.

إن هذه التوصيات تأتي نظرًا لحقيقة أن كثيرا من جوانب حياة الأشعري الفكرية، ومراحل تطور منهجه، وتفاصيل أدلته، وعمق تأثيره على الأجيال اللاحقة، لا تزال بحاجة إلى مزيد من التنقيب والتحليل من قِبل الباحثين المتخصصين، لتقديم صورة شاملة ودقيقة لإسهاماته التي لا غنى عنها في فهم تاريخ العقيدة الإسلامية وتطورها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

هوامش البحث

1. (ينظر: صبحي، ٢/٤٦).
2. (ينظر: ابن عساكر، ٣٤. والخطيب: ١٣/٢٦٠).
3. (ينظر: موسى، ١٦٥)
4. (ينظر: ابن عساكر، ١٤٦. والخطيب البغدادي، ١٣/٢٦٠.(
5. (ينظر: بدوي، ٤٩٠).
6. (ابن عساكر،٩١).
7. (ينظر: الذهبي، ١٤/١٩٧-٢٠٠).
8. (ابن عساكر، ٣٥).
9. (ينظر: ابن خلكان، ٤/٢٦٧).
10. (ينظر: غرابة، ٦١-٦٨).
11. (ينظر: ابن عساكر، ٤٠٠. والذهبي، ١٤/٧-١١).
12. (الخطيب البغدادي، ١٣/٢٦٠).
13. (ابن عساكر، ١٤١).
14. (ينظر على سبيل المثال كتابه: اللمع، ٥٧، وهو يذكر أستاذه الجبائي).
15. (ابن عساكر، ١٤٢).
16. (ينظر: بدوي، ٥٠٣).
17. (الخطيب البغدادي، ١٣/٢٦٠).
18. (ابن عساكر، ١٤٦-١٤٧).
19. (ينظر: ابن الصلاح، ٢/٦٠٤)
20. (ينظر:محمد مخلوف، ١/١١٨)
21. (ينظر: القرشي، ٤/٣٣)

.22(ابن عساكر، ١١٥).

.23(ابن عساكر: ٤٠٠).

.24 (ينظر: غرابة، ٧٠).

.25 (ينظر: صبحي، ٥٥).

.26 (ينظر: موسى، ١٩٥).

.27 (ينظر: المحمود، ٣٥٧).

.28(ابن عساكر: ١٧٧،٢٠٧،٢٤٨،٢٦٨،٢٨٨).

.29 (الخطيب البغدادي، ١٣/٢٦٠-٢٦١، بتصرف يسير).

.30 (ابن عساكر، ٤٠٠).

.31 (ابن تيمية، ٥/٢٧٦-٢٧٧).

.32 (ابن النديم، .(648/1

.33 (ينظر: موسى، ١٧١-١٧٢).

.34 (المغربي، ٢٦٩).

.35 (صبحي: ٥٢-٥٣).

.36(ابن عساكر، ٩١).

.37 (ينظر: ابن خلكان، ٤/٢٦٧).

.38 (ينظر: غرابة، ٦٦).

.39 (ينظر: حسن الشافعي، ٧٩).

.40(ابن عساكر، ٣٩).

.41 (ينظر: صبحي، ٤٦).

.42 (ينظر: بدوي، ٤٩٧).

.43 (ينظر: بدوي، ٤٩٧).

.44 (ينظر: الأشعري، الإبانة، قسم التحقيق، ١٥٣).

المصادر والمراجع:

١) القرآن الكريم.

٢) ابن الصلاح، عثمان بن عبدالرحمن (ت. ٦٤٣هـ)، طبقات فقهاء الشافعية، بيروت، دار البشائر الإسلامية، تحقيق: محيي الدين علي نجيب، ١٩٩٢، الطبعة الأولى.

٣) ابن النديم، محمد بن إسحاق (ت. ٣٨٠هـ)، الفهرست، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، أعده للنشر: أيمن الفؤاد السيد، ١٤٣٥/٢٠١٤، الطبعة الثانية.

٤) ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم (ت. ٧٢٨هـ)، منهاج السنة النبوية، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٦/١٩٨٦، الطبعة الأولى.

٥) ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت. ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، بيروت، دار صادر، تحقيق: إحسان عباس، ١٩٧١، الطبعة الأولى.

٦) ابن عساكر، علي بن الحسن (ت. ٥٧١هـ)، تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٤، الطبعة الثالثة.

٧) أبو زهرة، محمد أحمد (ت. ١٣٩٤هـ)، ابن تيمية، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩١، دون طبعة.

٨) الأشعري، علي بن إسماعيل (ت. ٣٢٤هـ):

أ- الإبانة عن أصول الديانة، الرياض، دار الفضيلة، دراسة وتحقيق: صالح بن مقبل العصيمي، ١٤٣٢/٢٠١١، الطبعة الأولى.
ب- اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، مصر، مطبعة مصر، صححه: حمودة غرابة، ١٩٥٥، دون طبعة.
ج- مقالات الإسلاميين، ألمانيا، دار فرانز شتايز، تصحيح: هلموت ريتر، ١٤٠٠/١٩٨٠، الطبعة الثالثة.
٩) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت. ٤٦٣هـ)، تاريخ بغداد، بيروت، دار الغرب الإسلامي، حققه: بشار عواد معروف، ١٤٢٢/٢٠٠٢، الطبعة الأولى.
١٠) الذهبي، محمد بن أحمد (ت. ٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، بيروت، مؤسسة الرسالة، بإشراف: شعيب الأرنؤوط، ١٤٠٤/١٩٨٤، الطبعة الثانية.
١١) الشافعي، حسن محمود، المدخل إلى دراسة علم الكلام، كراتشي، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، ١٤٢٢/٢٠٠١، الطبعة الثانية.
١٢) القرشي، عبد القادر بن محمد (ت. ٧٧٥هـ)، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، القاهرة، دار هجر، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، ١٤١٣/١٩٩٣، الطبعة الثانية.
١٣) المحمود، عبدالرحمن بن صالح، موقف ابن تيمية من الأشاعرة، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤١٥/١٩٩٥، الطبعة الأولى.
١٤) المغربي، علي عبدالفتاح، الفرق الكلامية الإسلامية، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٤١٥/١٩٩٦، الطبعة الثانية.
١٥) بدوي، عبدالرحمن (ت. ٢٠٠٢م)، مذاهب الإسلاميين، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧١، الطبعة الأولى.
١٦) صبحي، أحمد محمود (ت. ٢٠٠٤م)، في علم الكلام ج٢، بيروت، دار النهضة، ١٤٠٥/١٩٨٥، الطبعة الخامسة.
١٧) غرابة، حمودة (ت. ١٣٧٧هـ)، أبو الحسن الأشعري، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٣٩٣/١٩٧٣، دون طبعة.
١٨) مخلوف، محمد بن محمد (ت. ١٣٦٠هـ)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، بيروت، دار الكتب العلمية، علق عليه: عبد المجيد خيالي!، ١٤٢٤/٢٠٠٣، الطبعة الأولى.
١٩) موسى، جلال محمد، نشأة الأشعرية وتطورها، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢، دون طبعة.